البـــاب الأول
مناهج تدوين الحديث
على مر العصور

- **التدوين فى القرن الأول:**

كان تدوين الحديث فى مصر وغيرها فى القرن الأول الغرض منه حفظ السنة النبوية من الضياع ، وصيانتها من أن يتطرق إليها الوضع، فكانت كتابة الحديث آنئذ كتابة فردية، ثم ما لبثت أن دونت فى الصحف بجانب حفظها فى الصدور.

- **التدوين فى القرن الثانى:**

أما فى القرن الثانى فقد بـــدأ تدويـــن السنـــة فيه على يد الزهرى المتـــوفى سنة ١٢٤هـــ.

وكان منهج التدوين يقوم على جمع الأحاديث التى تدور حول موضوع واحد فى مؤلف خاص، فكان لكل باب من أبواب السنة مؤلف خاص به تـــدون فيـــه الأحاديث المتصلة بموضوعه مختلطة بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين.

ثم كانت المرحلة الثانية، من مراحل التدوين فى القرن الثانى، بعد الزهـــرى حيث قام الأئمة: مالك ، وابن جريج، وسفيان الثورى وغيرهم فجمعوا أحاديـــث الأبواب وضموا بعضها إلى بعض، فكانت مصنفا واحـــدا ومزجـــوا الأحاديـــث بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ونسج على هذا المنوال بقية أهل عصرهم. ولم يصلنا من مؤلفاتهم إلا مُوَطَّأ الإمام مالك ومسند الإمام الشافعى، والآثار للإمـــام محمد بن الحسن الشيبانى، ووصف لبعض المؤلفات الأخرى، وأغلب الظـــن أن العلماء أدمجوها فى مؤلفاتهم بعد ذلك. بجانب حفظها فى القلوب.

وكان الغرض من الجمع فى هذا القرن الثانى هو خدمة التـــشريع وتـــسهيل استنباط الأحكام، ومن أمثلة ذلك " موطأ " الإمام مالك الذى يعتبر أول مـــصنف من المصنفات الصحيحة رتب على الأبواب.

قال أبو بكر العربى: "الموطَّأ هو الأصل الأول واللباب".

وكتاب البخارى هو الأصل الثانى فى هذا الباب، وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذى.(١)

وقد عنى الإمام مالك فى كتابه بتدوين الأحاديث القوية، ومكث فى تأليفه وتنقيحه وتهذيبه أربعين سنة،وقد نهج فى تدوين الحديث فى كتابه أن يكون مرتبا على الأبواب، فيذكر أحاديث كل باب ثم يتبعها بما ورد فيه من الآثار عن الصحابة والتابعين .

ولا يمكن أن ننتقل للقرن الثالث دون ذكر الخليفة عمر بن عبد العزيز وما فعله للسنة وطلابها. لقد كان الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز يحرص أشد الحرص على نشر السنة وتبليغها، وتعليمها للناس، وكان يكتب إلى عماله أن يجروا على طلابها والمشتغلين بالعلم الرزق وأن يفرغوهم لطلب العلم.

وكان يريد ذلك حتى لا يشغلهم طلب الرزق والسعى على المعاش عن طلب العلم، حتى يعنوا بالعلم عناية فائقة، وحتى يتمخض طلبهم له، وحفظهم وحرصهم عن العلوم والأحكام والسنن، وحتى لا تضرهم مطالب المعاش إلى الخروج والسعى، والبحث والتعب فيأخذ كل هذا من أوقاتهم الكثير، فهو يرى أن توفير معاشهم وتفرغهم لطلب العلم سوف يجعلهم يتقنون العلم أشد الإتقان.

ولعله بهذا يكون أول من أجرى راتبا وشجع طلاب العلم، ولهذا المسلك الكريم مثيله فى الأزهر الشريف الذى أجرى لطلاب العلم راتبا يشجعهم على الطلب وهو ما كان يسمى قديما بـ " الجراية".

وكان لعمر بن عبد العزيز الفضل فى تدوين الحديث النبوى تدوينا رسميا عندما أصدر أمره إلى علماء الآفاق ليجمعوا الحديث ويدونوه.

روى البخارى– فى باب : "كيف يقبض العلم"

"وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن حزم:

انظر ماكان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبيﷺ ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا".

(١) تنوير الحوالك ص ٥.

وكان أول من لبى أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بتدوين السنة هو الإمام ابن شهاب الزهرى، ثم كثر التدوين بعد ذلك.

وهكذا تتضح لنا همة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز وعنايته بالسنة النبوية وتدوينها، وعنايته بطلاب العلم والحديث.. وهى عناية فجرت النهضة الحديثية فى مصر وفى سائر الأقطار الإسلامية.

- **التدوين فى القرن الثالث:**

أما فى القرن الثالث الهجرى فقد أخذ التدوين شكلا جديدا غير الذى عليه فيما مضى. فقام علماء هذا القرن وأفردوا أحاديث الرسول ﷺ عن أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، وتصدى بعضهم لتدوين الأحاديث التى يوهم ظاهرها التناقض، أو يقع فى حسبان البعض أنها غير صحيحة. ويجمع الطعون الواردة عليها ويبين حقيقتها، ويرد تلك الطعون.

وكانت مناهج التدوين فى القرن الثالث ترجع إلى الطرق الآتية:-

١- منهج التدوين على المسانيد:

ويتحقق بجمع المؤلف ما يروى عن الصحابى فى باب واحد من غير تقييد بوحدة الموضوع، واتسم هذا المنهج بإفراد الحديث وتجريده من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، وجمع كل ما يروى عن الصحابى وإن اختلفت موضوعات الأحاديث، فمثلا يوجد حديث للصلاة بجانب حديث للصوم، وهكذا مع الجمع بين الحديث الصحيح وغيره.

فيذكر صاحب المسند مثلا أبا بكر الصديق ﷺ وجمع ما رواه من الأحاديث، ثم عمر ﷺ وهكذا.

كان منهم من يرتب أسماء الصحابة على القبائل فيقدم بنى هاشم ثم الأقرب فالأقرب إلى رسول الله ﷺ فى النسب، ومنهم من رتبها على السبق فى الإسلام فقدم العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أهل الحديبية، ثم من أسلم وهاجر بين الحديبية والفتح، ثم من أسلم يوم الفتح، ثم أصاغر الصحابة سنا، ثم النساء، وممن سار على هذه الطريقة الإمام أحمد بن حنبل.

ومنهم من رتبهم على حروف المعجم كالطبرانى فى المعجم الكبير.

ومنهم من طرق التصنيف على المسانيد تصنيفه معللا بأن يجمع فى كل حديث طرقه واختلاف الرواة فيه، فإن معرفة العلل أجل أنواع علم الحديث، وبها يظهر إرسال بعض ما عدَّ متصلا، أو وقف ماظن مرفوعا وغير ذلك من الأمور المهمة.

وقد ألف الحافظ الكبير يعقوب بن شيبة البصرى المتوفى سنة ٢٦٢ هـ مسندا معللا، غير أنه لم يتم، ولو تم لكان فى نحو مائتى مجلد، والذى تم منه مسند العشرة والعباس وابن مسعود وعتبة بن غزوان وبعض الموالى وعمار[١].

وطريقة المسانيد هذه هى التى ابتدأ التأليف عليها فى القرن الثالث الهجرى، وأول من قام بذلك هو عبد الله بن موسى العبسى الكوفى، ومسدد بن مسرهد البصرى، وأسد بن موسى الأموى، ونعيم بن حماد، والخزاعى نزيل مصر، ثم انتشر التأليف على هذه الطريقة بعد ذلك بين الأئمة والحفاظ كالإمام أحمد ابن حنبل وإسحاق بن راهويه.

وكان منهم من جمع بين طريقة المسانيد وطريقة الأبواب فى مصنفه كأبى بكر بن أبى شيبة[٢].

ومن أعظم المسانيد مسند الإمام أحمد بن حنبل، وهو المراد عند المحدثين على الإطلاق، وإذا أرادوا غيره قيدوه باسم صاحبه[٣] ، وقد يطلق المسند على الكتاب المرتب على الأبواب أو الحروف أو الكلمات، لكون أحاديثه مسندة ومرفوعة إلى النبى ﷺ كصحيح البخارى فإنه يسمى (المسند الصحيح) وصحيح مسلم، وسنن الدارمى فإنهما تسميان (بالمسند) ، وهناك مسندات لم تصل إلينا كمسند الحارث بن الحارث بن أبى أسامة المتوفى سنة ٢٨٢هـ، ومسند عبد الحميد المتوفى سنة ٢٤٩هـ[٤].

وكان لهذه الطريقة – المسانيد– مزايا وعيوب:

أما مزاياها: فهى تجريد الأحاديث النبوية عن غيرها ، فقد أفردت أحاديث

---

(١) تاريخ فنون الحديث(١٥). (٢) مقدمة فتح البارى لابن حجر ص٥.
(٣) الرسالة المستطرفة ص٦١.
(٤) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص ٣٠٢ للدكتور على حسن عبد القادر.

الرسول ﷺ بالتدوين، وجردت من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ففى هذه الطريقة إذا نوع من استقلال الحديث عن الفقه.

وأما عيوب هذه الطريقة: فهى صعوبة الوقوف على الحديث فى المسند، لعدم جمع الأحاديث المتناسبة فى موضوعاتها فى باب خاص، كما كان من عيوبها ، كذلك تعذر معرفة درجة الحديث من الصحة والضعف والاحتجاج به أو عدمه، لاحتمال أن يكون كل حديث فى نظر القارئ صحيحا أو ضعيفا لأنها جمعت بين الصحيح وغيره، فلا يستطيع إدراك هذا كله إلا الحافظ المتضلع، وكان الباعث لأصحاب هذه الطريقة على تدوين الأحاديث التى لم تبلغ مرتبة الصحة، هو أن الطرق قد تتعدد فيصل الحديث إلى درجة الصحة، كما أنها صالحة للاعتبار بها وقد تتبين صحة الحديث لنقاده بعد ذلك.

ومما هو جدير بالذكر أن العلماء فى هذا العصر كانوا على درجة عالية فى معرفة الصحيح من الأحاديث التى دوّنوها، أو دونت لهم، ومعرفة الضعيف منها ومعرفة عللها، فكانوا على علم بحال المتون والأسانيد التى فى هذه المسانيد.

٢- منهج التصنيف على الأبواب:

ويقوم على تخريج الحديث على أحكام الفقه وغير ذلك، وتبويب الأحاديث وترتيبها ترتيبا موضوعيا، وتنويعها أنواعا مختلفة، بحيث يجمع المصنف ماورد فى كل حكم وفى كل باب على حدة، فيجمع الأحاديث المتعلقة بالصلاة فى باب ، والمتعلقة بالصوم فى باب وهكذا، وأهل هذه الطريقة منهم من اقتصر على إيراد ما صح فقط كالشيخين "البخارى ومسلم".

ومنهم من لم يقتصر على ذلك كأبى داود والترمذى والنسائى، وكان من مزايا هذه الطريقة سهولة الحصول على الحكم الشرعى وغيره من الباب الخاص به، والوقوف على درجة الحديث بيسر وسهولة بخلاف الطريقة الأولى "طريقة المسانيد"، حيث يصعب فيها الحصول على المطلوب، وهذا ما دعا الإمام البخارى إلى أن يتجه فى كتابه إلى الاقتصار على الحديث الصحيح، وتبعه الإمام مسلم سيرا على منهجه.

وكان لهما الفضل فى تمهيد الطريق أمام طلاب الحديث ليصلوا إلى الصحيح من الأحاديث دون عناء، ولعل أقدم كتاب يمثل طريقة التصنيف على الأبواب هو"موطَّأ الإمام مالك" ، غير أنه مزجه بأقوال الصحابة والتابعين، بخلاف عمل الشيخين فقد أفردا الحديث عن تلك الأقوال والفتاوى.

وكان الداعى لهذه الطريقة هو أن تكون عونا للفقهاء وتسهيلا لهم فى الوقوف على الأحاديث التى يستنبطون منها أحكامهم أو يستدلون بها أو يجتهدون على ضوئها.

٣- الطريقة الثالثة:

طريقة الجمع لبعض الأحاديث والطعون الموجهة إليها والرد عليها، كما فى كتاب (تأويل مختلف الحديث) لابن قتيبة المصنفة على هذه الطريقة.

العلوم التى صاحبت تدوين السنة

إن المحدثين قد اجتهدوا وصنفوا فى الجرح والتعديل، ومعرفة الصحابة، وتاريخ الرواة، ومعرفة الأسماء والكنى والألقاب، وتأويل مشكل الحديث ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، ومعرفة غريب الحديث ومعرفة علل الحديث. وكانت مؤلفات علماء القرن الثالث في علم المصطلح غير مستقلة، وإنما تابعة لمؤلفات كبيرة كالإمام مسلم فى مقدمة صحيحه، والإمام الترمذى فى خاتمة جامعة، وهكذا.

وأما استقلال هذا العلم والتصنيف فى جميع بحوثه فلم يكن إلا فى القرن الرابع على يدى الرامهرمزى ٣٦٠هـ.

وإذا ألقينا النظر على مؤلفات علوم السنة من لدن القرن الرابع إلى آخر العصور المتأخرة، نرى أنها لم تبلغ نضجها وتمامها في التصنيف إلا بعد القرن الثالث، بخلاف المصنفات الأخرى فى علم الحديث رواية فإنها وصلت إلى مرحلة التمام والنضج فى القرن الثالث، ولم تكن أعمال العلماء بعد هذا إلا جمعا وترتيبا وتهذيبا.

وذلك راجع إلى سببين:-

الأول: إن علماء القرن الثالث حملوا على عاتقهم مهمة جليلة وشاقة، وهى تدوين السنة النبوية وتصنيفها، فعنى بعضهم بتخليصها من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين وعنى الآخرون بتخليص الصحيح من غيره وتمييزه منه وهكذا.

وفي سبيل هذا العمل المضنى عاشوا للسنة حراسا ساهرين، لا ينطبق لهم جفن ولا تلين لهم عزيمة، وجابوا الأقطار الإسلامية، وقطعوا المفاوز النائية بل إن بعضهم ربما رحل الرحلات الطويلة لسماع حديث واحد، فانشغالهم بهذا العمل الضخم لم يكن ليمكن لهم من طول البحث أو كثرة التصنيف فى علوم السنة وخاصة أنهم ليسوا فى حاجة كبيرة إلى مثل هذه التصانيف لأنهم حملوا مقاييسهم وشروطهم فى السند والمتن وعلى ضوئهما دونوا ما دونوا مشافهة.

الثانى: إن علماء القرن الرابع لم ينشغلوا بمثل ما انشغل به أهل القرن الثالث الذين كفوهم عناء البحث فوجدوا فى مصنفاتهم ما يريدون.

ثم إن الرواية الشفاهية فى عهدهم فترت والرحلات العلمية قلت، فكان لديهم نوع من الاستقرار دعاهم لأن يتموا ما بدأه سلفهم بالنسبة لعلوم السنة، فتوفر لهم الوقت وأنارت لهم السبيل بعض بواكير سلفهم من أهل القرن الثالث فأخذوا فى استكمال هذه العلوم حتى بلغت نضجها وكمالها.

وإذا تتبعنا مراحل التصنيف فى هذه العلوم نرى أنها تمت ونضجت بعد القرن الثالث.

أولا: بالنسبة " للجرح والتعديل" صنف فيه ابن أبى حاتم ٣٢٧ هـ وأحمد بن نصر البغدادى ٣٢٣هـ وابن منده ٣٩٥هـ، وهؤلاء من أهل القرن الرابع، كما صنف فيه من أهل القرن الخامس: أبو بكر البرقانى ٤٢٥هـ وأبو الفضل الفلكى ٤٣٨هـ، وأبو الوليد الباجى ٤٧٤هـ، وأبو عبد الله الحميدى ٤٨٨هـ.

ومن أهل القرن السادس: ابن طاهر المقدسى ٥٠٧هـ، وأبو موسى المدينى ٥٨١هـ، وأبو القاسم بن عساكر ٥٢٣ هـ، وأبو بكر الحازمى ٥٨٤ هـ، وعبد الغنى المقدسى ٦٠٠هـ.

ومن أهل القرن السابع : ابن الصلاح ٦٤٢هـ، والحافظ المنذرى ٦٥٦هـ، وأبو شامة ٦٢٥هـ، وابن دقيق العيد ٧٠٢هـ.

ومن أهل القرن الثامن: ابن تيمية ٧٢٨هـ، والحافظ المزى ٧٤٢ هـ، وابن سيد الناس ٧٣٤هـ، والعراقى ٨٠٦هـ، وابن حجر ٨٥٢هـ ، وهكذا ظهر فى كل عصر من الأئمة الأعلام من وزنوا الرواة بميزان العدل، ومنهم من تكلم على الضعفاء، ومنهم من اقتصر على الثقات،ومنهم من جمع بين النوعين.

ثانيا: بالنسبة لمعرفة الصحابة: وهو فن رفيع من الفنون الحديثة يعرف به الاتصال والإرسال ألف فيه أبو موسى المدينى، وابن عبد البر وكتابه "الاستيعاب فى معرفة الأصحاب" يعتبر من أحسن المؤلفات فى هذا الفن ،و" أسد الغابة " لابن الأثير ٦٣٠هـ، واختصره الحافظ الذهبي ٧٤٨هـ فى كتابه "التجريد" وابن حجر العسقلانى٨٥٢هـ ألف كتابه "الإصابة فى معرفة الصحابة".

ثالثا: علم تاريخ الرواة: ويبحث فى تاريخ كل راو ورحلاته وتاريخ مولده ووفاته وأغلب أحواله التى لها دخل فى تعديله أو تجريحه،ومن ثمرات هذا العلم:

أ- معرفة السابق واللاحق من الأحاديث، وبذلك يمكن الوقوف على الناسخ والمنسوخ فلا يكون هناك تعارض.

ب- معرفة ما يقبل من أحاديث الثقات قبل اختلاطهم.

ج- معرفة الموضوع من الأحاديث،وذلك عن طريق معرفة ما إذا كان البعض لم يلتق بمن حدث عنه، ومن المصنفات فى ذلك : "الوفيات " لعبد الله بن أحمد ابن ربيعة الربعى الدمشقى٣٧٣هـ، ومن العلماء من ألف فى رجال الصحيحين، كابن طاهر المقدسى٥٠٧هـ ، ومنهم من ألف فى رجال السنن الأربع كأحمد بن أحمد الكردى ٧٦٣هـ، "تهذيب التهذيب" وتقريب التهذيب لابن حجر ٨٥٢هـ.

رابعا: معرفة الأسماء والكنى والألقاب: ومن الكتب المصنفة فى ذلك: كتاب"المنى فى الكنى" للسيوطى، وكتاب "الأسماء والألقاب" لابن الجوزى٥٩٧هـ.

ومن هذه الأنواع كتب مؤلفة فى المتفق والمفترق للخطيب البغدادى، وكتب فى المؤتلف والمختلف للدارقطنى.

خامسا: تأويل مشكل الحديث، ألف فيه ابن الجوزى ٥٩٧هـ كتابا أسماه: "التحقيق فى أحاديث الخلاف".

سادسا: الناسخ والمنسوخ: وممن ألف فيه أبو بكر زين الدين محمد بن أبى عثمان الحازمى المتوفى سنة ٥٨٤هـ، وسمى كتابه: الاعتبار فى الناسخ والمنسوخ من الآثار".

سابعا: معرفة غريب الحديث، وممن ألف فيه أبو سليمان الخطابى ٣٧٨هـ وجار الله أبو القاسم الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ، وابن الجوزى، وابن الأثير ٦٠٦ هـ وسمى كتابه؛ "النهاية فى غريب الحديث والأثر" ولخصه السيوطى المتوفى سنة ٩١١ فى كتاب سماه "الدر النثير تلخيص نهاية ابن الأثير".

ثامنا: معرفة علل الحديث، ألف فيه الدارقطنى وابن حجر، واسم كتابه "الزهر المكلول فى الخبر المعلول".

تاسعا: الموضوعات، ألف فيه بعض العلماء كتبا حصرت الأحاديث المكذوبة، ومنها "تذكرة الموضوعات" لابن طاهر المقدسى و" الموضوعات الكبرى" لابن الجوزى و"اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة "للسيوطى و"تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة على سيد المرسلين" لمحمد البشير ظافر أبى عبد الله المالكى المتوفى سنة ١٣٢٥هـ.

هذه نبذة عن بعض أنواع هذه العلوم، وهى كثيرة لا تحصى، وكما قال الحازمى: "علم الحديث يشتمل على أنواع كثيرة تبلغ مائة، كل نوع منها علم مستقل، لو أنفق الطالب فيه عمره لما أدرك نهايته، وقد ذكر ابن الصلاح منها خمسة وستين[1] أهـ.

وقد سبق الكلام عن تاريخ نشأة هذا العلم، وأن أول من صنف فيه القاضى أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزى المتوفى سنة ٣٦٠هـ فى كتابه "المحدث الفاصل بين الراوى والسامع" نعم كانت هناك مصنفات قبله، ولكنها كانت فى بعض الفنون،أما كتاب الرامهرمزى فيعتبر أعظم

(١) تدريب الراوى ص١٤.

ما ألف فى زمانه جميعا لأنواع هذا العلم، وإن لم يستوعب جميع المسائل، ثم تتابع التأليف بعد ذلك، فظهرت الكتب الكثيرة والمنظومات والمختصرات.

الرواية فى الإسلام

لم يعن العرب قبل الإسلام بالرواية وتصحيح الأخبار وتمحيص المرويات، لأن مروياتهم لم يكن لها من القداسة ما يدعو إلى ذلك، ففيها الأساطير والأحاديث المختلفة.

أما الرواية فى الإسلام، وفى الحديث خاصة فقد شدد العلماء فيها، وقعدوا لها القواعد، وصاغوا لها الشروط، وأصلوا لها الشروط، وأصلوا لها الأصول بعناية فائقة تعتبر أدق ما وصل إليه النقد فى القديم والحديث، وكان من مميزات الرواية فى الإسلام وخصائصها الإسناد الصحيح المتصل برواية العدول الضابطين.

ولقد ظل العلماء يتحرون الدقة، ويعنون بالتثبت من الأخبار ونقدها سندا ومتنا، ونظروا للإسناد على أنه من الدين، قال عبد الله بن المبارك: "الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء" (١) .

وقال صالح بن أحمد الحافظ: "سمعت أبا بكر محمد بن أحمد يقول : (بلغنى أن الله حفظ هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها: الإسناد، والأنساب، والأعراب).

ويقول محمد بن حاتم بن المظفر: "إن الله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمهم وحديثهم إسناد، وإنما هى صحف فى أيديهم وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم وليس عندهم تمييز بين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التى أخذوا عن غير الثقات.

وهذه الأمة إنما تنص الحديث من الثقة المعروف فى زمانه المشهور بالصدق والأمانة عن مثله حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجها وأكثر حتى يهذبوه من الغلط (٢).

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ١٠٥.

(٢) شرف أصحاب الحديث ص ٧٩ مخطوط بدار الكتب المصرية.

ومما سبق يتضح أن الإسناد من خصائص هذه الأمة، وقد رغب كثير من الأئمة الحفاظ فى الرحلة إلى الأقطار الإسلامية طلبا لعلو الإسناد، قال الإمام أحمد بن حنبل "الإسناد العالى سنة عمن سلف"(١).

وللرواية فى الإسلام أثرها الكبير فى العلوم الأخرى:

فلقد تأثر بعلماء الحديث ومناهجهم وأسانيدهم كثير من العلماء فى كثير من علوم اللغة والآداب والتاريخ والسير، وقلد أئمة السنة فيما يأتى:-

١- كانوا يذكرون السند، فمثلا يقول(٢)" ثعلب فى أماليه:"حدثنى أبو بكر ابن الأنبارى عن أبى العباس عن ابن الأعرابى، قال: يقال: لحن الرجال يلحن لحنا فهو لاحن إذا أخطأ، ولحن يلحن لحنا فهو لحن إذا أصاب وفطن".

٢- سار كثير من علماء اللغة على نمط علماء الحديث فى ترتيب كلمات اللغة وأطلقوا اصطلاحات يظهر فيها التأثير الكبير باصطلاحات الحديث، قالوا: فصيح وأفصح وجيد وأجود، وقالوا أيضا: ضعيف ومنكر ومتروك، كما صنع رجال الحديث فى قولهم مثلا صحيح وحسن وضعيف وقالوا: أوفى بالعهد أفصح من وفى بالعهد لأن الأولى لغة القرآن.

٣- قاموا بتجريح بعض الرواة وتعديلهم شأنهم فى ذلك شأن علماء السنة فعدلوا الخليل بن أحمد وأبا عمرو بن العلاء، وجرحوا قطربا.

٤- كانت لهم محاولات فى تدوين الكلمات، وكانت لهم طريقتان:

الأولى: دونوا فيها الكلمات حسبما اتفق دون ترتيب.

والثانية: وضعوا الكلمات المتعلقة بموضوع واحد كما وضع المحدثون بالنسبة لمرحلة التدوين على المسانيد وعلى الأبواب.

٥- يظهر للناظر في كتب تراجم الأدب صيغة المحدثين واضحة ككتاب الأغانى، فإننا نراه يسير على غرار إسناد المحدثين، كقوله مثلا: أخبرنى الحسين

(١) الباعث الحثيث لابن كثير ص١٦٠.
(٢) ضحى الإسلام: أحمد أمين حـ٢ ص٢٥٨.

ابن يحيى عن حماد عن أبيه عن أبى عبيدة،قال: بلغنى أن هذا البيت فى التوراة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وكانت المؤلفات فى تراجم الشعراء وطبقاتهم على خط طبقات المحدثين كما منع ابن سلام حيث وضع طبقات الشعراء، وابن قتيبة، كل ذلك على نمط صنيع المحدثين.

* * *

ولننطلق فى رحلة البحث والتعمق داخل أشهر كتب الحديث.. ولنبدأ بأشهر تلك الكتب وهو "موطأ" ابن مالك.